

٣ - المهدي

وهو «محمد بن المنصور» أبي جعفر؛ عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عباس وأمه «أروى بنت منصور» الحميرية، وكنيتها «أم موسى».

ذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» في ترجمته للمهدي: وكان جواداً ممدحاً، مليح الشكل، محبباً إلى الرعية، حسن الاعتقاد، تتبّع الزنادقة، وأفنى منهم خلقاً كثيراً، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين، روى الحديث عن أبيه، ثم تابع «السيوطي» قوله: ولما شب «المهدي» أمره أبوه على طبرستان وما والاها، وتأدّب، وجالس العلماء، وتميّز، ثم إن أباه عهد إليه، فلما مات بويغ بالخلافة، ووصل الخبر إليه ببغداد، فخطب الناس، فقال: إن أمير المؤمنين عبد دُعِيَ فأجاب، وأمر فأطاع، واغرورقت عيناه، فقال: قد بكى رسول الله ﷺ عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيماً، وقُلِّدْتُ جيماً، فعند الله أحب أمير المؤمنين، وبه أستعين على خلافة المسلمين، أيها الناس! أسرُّوا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية، وتحمدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك، والله! لأفنيَنَّ عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم.

قال «نفظويه»: لما حصلت الخزائن في يد «المهدي» أخذ في رد المظالم، فأخرج أكثر الذخائر فغرَّقها، وبر أهله ومواليه^(١)، وفي سنة أربع وأربعين ومائة تزوج «المهدي» من «ريطة بنت أبي العباس» السَّقَّاح فأولدها «علياً» و«عبيد الله»، وكانت له جارية يقال لها: «رحيم»، ولدت له «العباسية»، وتزوج «أم عبد الله بنت صالح بن علي» أخت «الفضل» و«عبد الله». واشتري جارية تدعى «الخيزران» فولدت له ابنه «الهادي» و«الرشيد» و«البانوق»، وفي سنة تسع

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٤٠.

وخمسين ومائة أعتقها وتزوجها، ونالت عنده حظوة عظيمة، وتحولت من الرق إلى الملك، وأصلها من «جُرَش» في اليمن، وكانت امرأة خليفة هو «المهدي» وأم خليفين هما «الهادي» و«الرشيد» وكانت إلى جانب جمالها الفريد، تتمتع بذكاء حاد مَهَّد لها دخول ميدان الأدب والشعر، وتعلمت على الإمام «الأوزاعي» فنهلت من فقهه حتى أصبحت إحدى فقيها نساء عصرها، مما حدا بالمهدي إلى تقديمها على جميع نسائه، وكانت مجموعة الكلمة عند زوجها «المهدي»، وكان لا يرد لها طلباً لشدة ولعه بها، وإذا غابت كان يرأسها ويتبادل معها الأشواق والأشعار، وقد استأذنته مرة للذهاب إلى الحج فأذن لها، وبينما هي في مكة، استوحش لها فأرسل إليها بهذه الأبيات:

نحن في غاية السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غيَّب ونحن حُضُورُ
فاجِدُوا في السير بل إن قدرتم أن تطيروا مع الرياح فطيروا
فردَّت على أبياته بهذه الأبيات:

قد أبنا الذي وصفت من الشو قِ فكندا وما قَلَرنا نطيرُ
ليت أن الرياح كُنَّ يُؤدِّب نَ إليكم ما قد يُكِنُّ الضميرُ
لم أزل صَبَّةً فإن كنت بعدي في سرور فدام ذاك السرورُ

وعلى الرغم من أن كلاً من «موسى الهادي» و«هارون الرشيد» ولداها إلا أنها كانت تميل إلى «الرشيد» أكثر، وكانت للمهدي ابنة تدعى «البانوقة» توفيت في حياته. واختلفت الروايات في وفاة المهدي، فقد أخرج «ابن جرير الطبري» في تاريخه: ذكر أن «المهدي» كان في آخر أمره قد غرم على تقديم «رون» ابنه، علي ابنه «موسى الهادي»، وبعث إليه وهو بجرجان بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة ويقدم «الرشيد» فلم يفعل، فبعث إليه «المهدي» بعض الموالي، فامتنع عليه «موسى» من القدوم، وضرب الرسول فخرج «المهدي» بسبب «موسى» وهو يريد بجرجان، فأصابه ما أصابه.

وذكر «الباهلي» أن «أبا شاكر» أخبره - وكان من كتَّاب «المهدي» على بعض دواوينه - قال: سألت «علي بن يقطين» «المهدي» أن يتغدى عنده، فوعده أن يفعل، ثم اعترى علي إتيان «ماسبَدان»؛ فوالله! لقد أمر بالرحيل كأنه يُساق إليها

سوقاً، فقال له «علي»: يا أمير المؤمنين! إنك قد وعدتني أن تتغذى عندي غداً، قال: فأخملُ غداً إلى «النهروان»، قال: فحملة فتغذى بالنهروان، ثم انطلق، وفيها توفي «المهدي».

وقال ابن جرير: عن واضح قهرمان «المهدي»، قال: خرج «المهدي» يتصيد بقرية يقال لها الرذُّ بماسبذان، فلم أزل معه إلى بعد العصر.

وانصرفت إلى مضربي - وكان بعيداً من مضربه - فلما كان في المحر الأكبر، ركبت لإقامة الوظائف، فإني لأسير في برية، قد انفردت عن من كان معي من غلماني وأصحابي؛ إذ لقيني أسود عريان على قَتَدَ رَحْلٍ، فدنا مني، ثم قال لي: أبا سهل!، عَظَّم اللهُ أجرك في مولاك أمير المؤمنين، فهمت أن أعلوه بالسوط، فغاب من بين يدي، فلما انتهيت إلى الرواق لقيني «مسرور» فقال لي: أبا سهل! عَظَّم اللهُ أجرك في مولاك أمير المؤمنين، فدخلت فإذا أنا به مسجى في قبة، فقلت: فارقتكم بعد صلاة العصر، وهو أسرُّ ما كان حالاً وأصحه بدنأ، فما كان الخبر؟

قال: طردت الكلاب خلفه، واقتحم الفرس خلف الكلاب، فدُقَّ ظهره في باب الخربة، فمات من ساعته.

وذكر أن «علي بن أبي نعيم المروزي»، قال: بعثت جارية من جواري «المهدي» إلى ضرة لها بلبيا فيه سم - اللبأ: أول اللبن - وهو قاعد في البستان، بعد خروجه من عيساباذ، فدعا به فأكل منه، ففَرَقَتِ الجارية أن تقول له: إنه مسموم. وحدثني أحمد بن محمد الرازي أن «المهدي» كان جالساً في عُليَّة في مَصْر بماسبذان، يشرف من منظره فيها على سفله، وكانت جاريته «حسنة» قد عمدت إلى كمثراتين كبيرتين، فجعلتهما في صينية، وسَمَّتْ واحدة منهما، وهي أحسنهما وأنضجهما في أسفلها، وردت القمع فيها، ووضعتهما في أعلى الصينية - وكان «المهدي» يعجبه الكمثري - وأرسلت بذلك مع وصيفة لها إلى جارية للمهدي - وكان يتحفظها - تريد بذلك قتلها، فمرت الوصيفة بالصينية التي فيها تلك الكمثري، تريد دفعها إلى الجارية التي أرسلتها «حسنة» إليها، بحيث يراها «المهدي» من المنظره، فلما رآها ورأى معها الكمثري، دعا بها، فمد يده إلى

الكمشراة التي في أعلى الصينية، وهي المسمومة فأكلها، فلما وصلت إلى جوفه صرخ: جوفي، وسمعت «حسنة» الصوت، وأخبرت الخبر، فجاءت تَلْطُم وجهها وتبكي، وتقول: أردتُ أن أنفرد بك، فقتلتُك يا سيدي! فهلك من يومه.

وذكر «عبد الله بن إسماعيل» صاحب المراكب، قال: لما صرنا إلى ماسَبَدَان دنوتُ إلى عنانه فأمكت به، وما به علة؛ فوالله! ما أصبح إلا ميتاً، فرايت «حسنة» وقد رجعت؛ وإن على قبتها المُسُوح، فقال «أبو العتاهية» في ذلك:

رُحْنٌ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحُ	نَ عَلَيْهِنَ الْمُسُوحُ
كُلَّ نَطَّاحٍ مِّنَ الدَّفْ	رِ لَهُ يَوْمَ نَطَّوحُ
لَسْتُ بِالْبَاقِي وَلَوْ عُمُ	جِزْتَ مَا عُمَّرَ نُوحُ
فَعَلَى نَفْسِكَ نُحُ إِنْ	كُنْتَ لَا بَدَّ نُوحُ

وذكر «صالح القاريء» أن «علي بن يقطين»، قال: كنا مع «المهدي» بماسَبَدَان، فأصبح يوماً، فقال: إني أصبحتُ جائعاً، فأتي بأرغفة ولحم بارد مطبوخ بالخل، فأكل منه، ثم قال: إني داخل إلى البهو ونائم فيه، فلا تنبهوني حتى أكون أنا الذي أنتبه، ودخل البهو فنام، ونمنا نحن في الدار في الرواق، فانتبهنا بيكائه، فقمنا إليه مسرعين، فقال: أما رأيتم ما رأيتم؟ قلنا: ما رأينا شيئاً، قال: وقف على الباب رجل، لو كان في ألف أو في مائة ألف رجل ما خَفِيَ عليّ، فأنشد يقول:

كَأَنِّي بِهَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ	وَأَوْحَشَ مِنْهُ رِبْعُهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدَ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ بَهْجَةٍ	وَمُلْكٍ إِلَى قَبْرِ عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ذَكَرُهُ وَحَدِيثُهُ	تَنَادَى عَلَيْهِ مَغُولَاتٍ حَلَائِلُهُ

قالت: فما أتت عاشرة حتى مات، وكانت وفاته - فيما قال أبو معشر والواقدي - في سنة تسع وستين ومائة ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم^(١).